

دور المخيلة في المعرفة النظرية عند كانط

الدكتورة سوسان لياس*

(تاريخ الإيداع 13 / 10 / 2015. قبل للنشر في 3 / 12 / 2015)

□ ملخص □

يسلط البحث الضوء على حقيقة الدور الذي تلعبه المخيلة في تشييد معارفنا إلى جانب كل من ملكتي الحساسة والفهم، وذلك بالعمل على إيجاد التجانس والانسجام بين عالم الحس وعالم الفهم، عبر دورين رئيسيين تحقق المخيلة من خلالهما وظيفة الربط والتأليف الخاصة بها، فتجعل من المعرفة الموضوعية أمراً ممكناً. - دور تجريبي - حسي تقدم فيه المخيلة تمثلات عن الأشياء، بعد توحيد الانطباعات الحسية معاً ، لملكة الفهم فتتمدّ مقولاتها بالحدوس المناسبة وتجعلها تتصور الأشياء تصوراً عقلياً تلقائياً .

دور إبداعية تمارس فيه المخيلة دورها التألّيفي الأهم عبر توفير رسوم وتخطيطات ذهنية خالصة ، تمهد للتأليف العام الذي تحققه مقولات الفهم على مستوى الذهن، تسمح من خلاله بتركيب أحكام موضوعية تحقق شرط المعرفة العلمية الممكنة.

كما ويظهر البحث أن عمل المخيلة يتخذ صورة الزمان: فالزمان مجانس للحدس، لأنه يتضمن تمثلاتنا الحسية. وهو قاعدة عامة كلية أولية تناسب جميع الظواهر.

الكلمات المفتاحية : النظري ، عملي ، عقل ، عقلانية ، تجربة ، صورة ، جوهر .

* مدرس - قسم الفلسفة - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق - دمشق - سورية .

The Role of Imagination in Kant`s Theoretical Knowledge

Dr. Ilias Susan*

(Received 13 / 10 / 2015. Accepted 3 / 12 / 2015)

□ ABSTRACT □

This research sheds light on the real role imagination plays in building our knowledge besides the two faculties of sensitivity and understanding, all through finding

Coherence and harmony between the two worlds of sensation and understanding via two major roles through which imagination achieves its special function of connecting and constituting this making objective knowledge a possibility.

An empirical sensuous role in which imagination presents embodiments of things, after uniting sensuous impressions of the faculty of understanding, so it provides its characteristics with the appropriate intuitions and makes them conceive things rationally and spontaneously.

A creative role in which imagination practices its most important role of constituting, through providing pure intellectual drawings and plans, which introduces for general constituting that understanding characteristics achieves on the level of intellect, and allows through it for composing objective judgments that accomplish the condition of possible scientific knowledge.

The research also demonstrates that word of imagination takes the form of time, that time is homogeneous with intuition because it includes our sensuous embodiments, and it is a general total, and primary role suits all phenomena.

Keywords: : substance, form, essence, hyle, matter

*Assistant professor, department of philosophy, faculty of art and humanities university Syria.

مقدمة :

يعد عمانوئيل كانط (1724 - 1804) من أشهر ممثلي الفلسفة النقدية الحديثة، ومن أكثر الفلاسفة تأثيراً بتيارين رئيسيين هما : التيار التجريبي والتيار العقلي . وفي فلسفته النقدية، وبخاصة كتاب النقد الأول " نقد العقل المحض" نتعرف على صراع مزدوج : ضد التجريبية وضد العقلانية (التقليدية)، التجريبية التي نزعت عن العقل ومفاهيمه وأفكاره، القدرة على الوصول إلى معارف يقينية، عبر التشكيك في قدراته المطلقة سواء فيما يتعلق بعلوم الطبيعة أو موضوعات الميتافيزيقا . بمقابل العقلانية الحديثة التي جعلت من علوم العقل وموضوعاته منطلقاً أساسياً لمعارف الإنسان الحقيقية، فوقعت - بحسب كانط - في دائرة " التزمت الفكري" الذي لا سبيل لتجاوزه إلا بمساءلة العقل نفسه وتبيان مدى قدراته وادعاءاته في معرفة المطلق، فطرح أسئلته المشهورة حول ما الذي يمكن أن نعرفه ؟ وما الذي يمكن أن نفعله ؟ وما الذي نأمله ؟. حاول كانط التوسط بين الطرفين (التجريبية والعقلانية) لأن كل منهما قدم في نظره تفسيراً مشوهاً، ومن جانب واحد لبناء المعرفة الإنسانية ومضمونها، فشرع في البحث عن شروط إمكان التجربة * ووضع هذه الشروط في ملكات الإنسان (ملكة الحس، ملكة الفهم، ملكة العقل) . الأولى تمدنا بصورتي المكان والزمان اللتين بهما ندرك الأشياء ونتعرف عليها . في حين أن مهمة ملكة الفهم تكمن في أنها تضمن الوحدة للظواهر عن طريق المقولات تبعاً لبعض القواعد . أما ملكة العقل فيسميها كانط " ملكة المبادئ " ويعدها أسمى القوى الفكرية فينا. ويضيف كانط بأن عمل هذه الملكات، وبخاصة (الحساسة والفهم) لا يتحقق إلا بمساعدة ملكة أخرى تلعب دوراً محورياً في تنفيذ عمل الفهم وهي ملكة المخيلة التي تشكل والملكات الأخرى " شبكة " حقيقية مكوّنة للطريقة الترנסدنتالية التي سار عليها النقد الأول. وللوقوف على أهمية دور المخيلة في المعرفة الإنسانية لا بد من استعراض عمل كل من ملكتي الحساسة والفهم، حيث تتوسط المخيلة التضاد الحاصل بين فعل الحساسة بصورتيه الزمان والمكان المطبقتين على مدركات الحس، وفعل الفهم بمقولاته الصورية الخالصة من أية مادة تجريبية .

مشكلة البحث وتساؤلاته الرئيسية :

لما كانت الذات العارفة وملكاتها الفكرية هي التي تضفي على المعرفة مشروعية تستند على الحكم القبلي، وكانت موجودات الطبيعة لا تظهر إلا من خلال القوانين التي تشرعها ذاتنا العارفة، فإن الوقوف على عمل تلك الملكات ودورها في تشكيل معارفنا يمتلك أهمية قصوى وخاصة ملكة المخيلة التي يسند إليها كانط وظيفة توسطية بين عالم الحس وعالم الفهم عبر رسوم خيالية يتم عن طريقها قيام المعرفة القبلية لجميع الموضوعات .

وانطلاقاً من ذلك نطرح الأسئلة التالية:

- ما الدور الذي تلعبه المخيلة في تنفيذ عمل الفهم في إصدار أحكامه المعرفية - القبلية .
- كيف تمارس المخيلة نشاطها الإبداعي، وما موقعها من عملية التأليف الذي تقوم به الذات .
- كيف يسهم الزمان في عمل المخيلة التركيبي .

أهمية البحث وأهدافه:

* - إن مفهوم التجربة عند كانط يختلف عنه عند التجريبيين ، فالتجربة تشير إلى ارتباط الظواهر (المدركات) تركيبياً تحت تصورات الذهن الخاصة به بوصفه ارتباطاً ضرورياً . راجع بهذا الخصوص كتاب كانط " مقدمه لكل ميتافيزيقا مقبلة" ص 112 وما بعدها .

- أهمية البحث:

يسلط البحث الضوء على :

- دور كل من الحساسية والفهم في إنتاج المعرفة الإنسانية .
- إسهام ملكة المخيلة في قيام الأحكام المعرفية الموضوعية ، ودور الرسوم الخيالية في التضاد الحاصل بين عمل الحس وعمل الفهم .
- أهمية الزمان كفاعل محدد لعمل الخيال ورسومه .
- أهمية البحث :

يهدف البحث إلى الكشف عن وظيفة المخيلة ودورها المحوري في المعرفة إلى جانب كل من ملكة الحساسية وملكة الفهم ، فعدم الانسجام الحاصل فيعمل الحساسية والفهم يتطلب طرفاً ثالثاً يشاكل مقولات الفهم من طرف والمظهر من طرف ثان هو عمل الخيال المنتج لأشكال زمنية المقولات الفهم تكشف عما يعنيه المفهوم حين يطبق على عالم الظواهر .

منهجية البحث:

اعتمدنا في بحثنا المنهج التحليلي لنصوص كانط عن المخيلة ودورها البناء في المعرفة ، ثم استخدمنا المنهج التركيبي بهدف بناء النص للوصول إلى المكانة الحقيقية والرؤية الدقيقة لدى كانط عن دور الوساطة الذي تلعبه المخيلة في إصدار أحكام المعرفة العقلية .

أولاً : ملكة الحساسية :

يرى كانط أنه طالما تهيأت لنا تجربة بأشياء فنحن ندركها في مكان وزمان، وهذا بنظره مبدأ لا استثناء له . والإحساسات الخالصة العادية لا تزودنا بالمكان والزمان، فهما إذا صفتان تابعتان للذهن وهما قائمتان في كل إدراك. يعني أن للذهن قدرة على تزويد كل تجربة إدراكية بهاتين الصورتين " فهما بالنسبة إلينا شكلاً كل ظهور ممكن، الشكلان الخالصان لحدسنا أو حساسيتنا " (1) . و ليس للزمان والمكان وجود في عالم الواقع، فهما لا يؤلفان جزءاً من التجربة ، ولا أفكار مستمدة من تلك التجربة " بل هما صورتان للمعرفة لا تقومان إذن إلا بالذات العارفة " (2) . فالتنوع المحسوس المدرك من قبلنا لا يظهر إلا في علاقات إحياء مكاني وتتابع زمني ينسب قليلاً لملكة الحساسية الصورية، التي يميزها كانط عن الحساسية التجريبية التي تقبل مادة الإحساس من الخارج، والتي تعني تلك " القدرة القائمة في الذهن على تلقي التصورات بالطريقة التي بها تتأثر بالموضوعات الوافدة " (3) . ومهمة كانط على هذا المستوى من المعرفة إثبات أنه ثمة صورتان خالصتان للحدس الحسي، يشكلان مبادئ للمعرفة القبلية، يتم بواسطتهما حدس الموضوعات الخارجية كتمثلات فحسب ، أي أننا ندركها كظواهر (phenomens) وليست أشياء في ذاتها (Noumen) فهذا " باب مغلق تماماً ليس فقط أمام الحاسة، بل كذلك أمام الفاهمة " (4)

¹ - جيل دولوز فلسفة كانط النقدية، تعريب أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1 بيروت- لبنان، 1997 ، ص

16

² - عبد اللطيف الصديقي، الزمان أبعاده وبنيته ، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط1، 1995 ، ص 100

³ - عمانونيل كانط ، نقد العقل المحض ، ترجمة موسى وهبه، مركز الإنماء القومي، بيروت، ص59

⁴ - جورج زيناتي، الفلسفة في مسارها، الأحوال والأزمات للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 ، 2002 ، ص 181

ثانياً : ملكة الفهم (الفاهمة) *

يحدد كانط مهمة الفهم ، في الباب الخاص بالتحليل الترنسندنتالي من كتاب (نقد العقل المحض) ، بالقدرة على الربط والتوحيد بين العيانات المدركة، والفصل والمقارنة بينها، وذلك بتطبيق مفاهيمه / تصورات/ على الإحساسات وإدراكها على أنها موضوعات أو أشياء. فالفهم يوحد مدركات الحساسة بعد أن حدث بينها تركيب أولي بواسطة الزمان والمكان، ليكون منها أحكاماً كلية وضرورية. والمعرفة بحسب كانط " لا تتألف من تصورات " وحسب، لأن التصور بحد ذاته غير كافٍ لتكوين معرفة، بل تقوم بالتأليف بين تلك التصورات، وأول شيء يعطى لنا حتى تصير تلك المعرفة ممكنة هو " متنوع الحدس المحض والثاني، تأليف هذا المتنوع بالمخيلة " .⁽¹⁾ وفقاً لمفاهيم عامة يدعوها كانط بالمقولات وهي مدركات عقلية لا يميز الزمان والمكان " تخضع الظواهر بالضرورة لها إلى حد أننا نكون بواسطة المقولات، مشرعي الطبيعة الحقيقيين " .⁽²⁾

وتقوم ملكة الفهم - بحسب كانط - بتكوين المعرفة وإصدار الأحكام بواسطة تلك المقولات، التي تنطبق أولاً على موضوعات التجربة التي تخضع لها وتتلاءم معها، فتخلع عليها الوحدة وتجعل المعرفة الموضوعية أمراً ممكناً. وانتهى كانط - بعد تحليله لطبيعة تلك المقولات وعملية استخراجها وتبيان القيمة الموضوعية التي تجعل من تلك المقولات شروطاً ضرورية لاستقبال حدوسنا الحسية - إلى أن المعرفة تتم عن طريق الاتفاق التام بين حدوس الحساسة ومقولات الفهم، وحين يجتمع العيان / الحدس / والمفاهيم / المقولات / معاً يصير الخيال ورسومه التخطيطية شرطين لإمكان المعرفة . والسؤال كيف يقوم الخيال ورسومه، بوصفه نتاجاً للمخيلة، بدوره في عملية الجمع أو الربط (الاتفاق) تلك ؟ وما أهمية التوسط الذي يقوم به وهذا ما حدا بالبعض إلى القول بأن الخيال " يشكل حجر الأساس في ابستمولوجيا كانط " .⁽³⁾

ثالثاً " دور المخيلة في عملية التركيب (الربط):

يحدد كانط وظيفة المقولات بأنها توحد بين الظواهر وتؤلف بينها عن طريق نوع من التأليف العقلي، فهي إذن روابط عقلية أو " شروط ذاتية " تظهر من خلالها معطيات العالم الحسي في صورة موحدة. وعملية الربط (التأليف) هذه عملية عقلية صرفة تقوم بها ملكتنا الفهم والمخيلة حيث تؤدي المخيلة دوراً فعالاً في عملية الربط تلك والتي تقوم بها الذات، ويعرف كانط الربط بأنه " تصور لوحدية المتنوع التأليفية " .⁽⁴⁾ أما عملية الربط أو التأليف تلك فهي تمر بمراحل متعددة :- تأليف أول للإدراكات أو الحدوس الحسية التي نستقبلها متباعدة ومتفرقة، والتي نجد فيها نوعاً من الوحدة المتصورة بين تلك العناصر الحسية بوصفها " كلاً منسجماً " . هذه الوحدة السريعة للمحسوسات المنفصلة هي " مجرد فعل للمخيلة، أعني لوظيفة للنفس عمياء، إنما لا غنى عنها، ومن دونها لا يمكن البتة أن نحصل على أي معرفة " .⁽⁵⁾ تأليف ثانٍ متمم للتأليف الأول، تقوم به المخيلة كذلك، يضيف نوعاً من النظام ناجم عن استرجاع الإدراكات الماضية، وإدراك أوجه الشبه القائمة بينها وبين الإدراكات الحسية الحاضرة .⁽⁶⁾ لما للمخيلة من

* - يسمى موسى وهبة، مترجم كتاب كانط " نقد العقل المحض " ملكة الفهم (بالفاهمة) ومقولات الفهم (أفاهيم الفاهمة) وجب التنويه

1 - كانط ، نقد العقل المحض مصدر سابق ، ص 89

2 - جيل دولوز ، فلسفة كانط النقدية، مرجع سابق، ص 29

3 - كيفن فانهوزر، أسلاف فلسفة ريكور في " الزمان والسرد " ضمن كتاب الوجود والزمان والسرد فلسفة بول ريكور، ترجمة وتقديم سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1999 ، ص 61

4 - عمانويل كانط- نقد العقل المحض، مصدر سابق ، ص 99

5 - المصدر السابق ، ص 88

6 - يحيى هويدي، دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1990، ص 135 .

قدرة استرجاعية في استحضار صور الأشياء الماضية التي مرت بالحس لتكون حاضرة أمامها بشكل يمكنها من التأليف بين عناصرها. ويصف كانط هذا النوع من التأليف (بالتأليف الاسترجاعي للمخيلة) التي " يخضع تأليفها لقوانين امبيرية فقط، وهي قوانين التداعي ".⁽¹⁾ والتي لا يكون لعملها إسهام حقيقي في تفسير إمكان المعرفة القبلية، والمعرفة عموماً. لكن كانط يوضح أيضاً بأن قدرة المخيلة الاسترجاعية مرتبطة بالقدرة على التأليف عموماً، وهي قدرة أولية (قبلية) تضاف إلى قدرتها التجريبية على التأليف والربط بين مدركات الحس.

- التأليف على المستوى الثالث، والذي هو تنويع لعمل المخيلة التأليفي، هو فعل لتفانيمة ملكة التصور (الفهم) يقوم به الوعي ويستمد مادته، ليس من المعطى الحسي بل من التصورات الذهنية. يقول كانط: **الربط هو التصور الوحيد بين جميع التصورات الذي لا يمكن أن يعطى بالأشياء، بل يمكن للذات وحدها أن تقوم به، لأنه فعل من أفعال تفانيمتها.**⁽²⁾ وهذا ما ذهب إليه جون لوك من أن نشاط الذهن هو الذي يركب الانطباعات المنفصلة والمتفرقة، في تشكيلات متكاملة موحدة.⁽³⁾ ويسمي كانط هذا التأليف: بالتأليف عن "طريق التعرف على التصور"، وهو تأليف يستند على الوعي الذي يكتشف وحدته عن طريق التعرف على موضوعاته التصورية، يقوم به الذهن بواسطة الفكر لاكتشاف الوحدة التي في التصورات، وهذه الوحدة لا تكون ممكنة إلا عن طريق وعي الذات لذاتها

(الفكر الواعي) والتي تجد نفسها، بوصفها ذاتاً مفكرة، وجهاً لوجه أمام موضوع متعقل، هي وحدة " تسبق قبلياً كل أفاهيم الربط ... وعلينا بالتالي، أن نبحث عن تلك الوحدة في مكان أعلى (كوحدة نوعية) ".⁽⁴⁾ يسميها كانط (وحدة الوعي التأليفية) والتي هي " شرط موضوعي لكل معرفة، فأنا لست بحاجة إليها لأعرف شيئاً وحسب، بل ويجب أن أخضع لها أيضاً كل حدس حتى يصير شيئاً لي، لأن المتنوع لن يتوحد في وعي بطريقة أخرى ومن دون هذا التأليف ".⁽⁵⁾ وهذه الوحدة تقوم على مبدأ ترنسدنتالي لا يتغير، هو الإدراك الذاتي الترندنتالي (المتعالي)، يضفي على عملية الإدراك صفة الضرورة ويجعل الوحدة تقوم على مبدأ عقلي ثابت يصاحب جميع تصوراتي، يتلخص " بالأنا أفكر " وهو " عين الفهم " الذي تمثل مقولاته مجموعة من القوانين العامة والشروط التي يضعها العقل لمعرفة الأشياء والتي لا تتم معرفتها إلا عن طريق ملكتي المخيلة والفهم، لما لهما من قدرة على إضفاء الوحدة على الأشياء. ويصرح كانط بأنه، على الرغم من أهمية تأليف المخيلة ودورها في إمكان المعرفة القبلية لجميع الموضوعات إلا أنه " تأليف لا يعطي بعد أي معرفة " ⁽⁶⁾ . بدون مفاهيم الفهم، ما يعني - بحسب دولوز - أن المخيلة "ملكة فعالة وليست مشرعة " ⁽⁷⁾ . وهذا ما ذهب إليه كانط أيضاً في كتاب النقد الثالث " نقد ملكة الحكم " من أن المشرّع الحقيقي لكل معرفة هو الفهم عبر مقولاته " فبالنسبة إلى ملكة المعرفة يكون الفهم وحدة مشرّعاً، حينما تكون تلك الملكة بما هي ملكة معرفة نظرية، على علاقة بالطبيعة... التي نستطيع بالنسبة إليها وحدها، بما هي ظواهر أن تصدر قبلياً قوانين بواسطة مفاهيم الفهم الخالصة ".⁽⁸⁾ إذن يبين كانط أن الحدوس الحسية التي نستقبلها متباعدة ومنفصلة يجب أن تتوحد وتتألف على نحو معين بواسطة فعل أول للمخيلة. وأن الذات ينبغي أن تكون واعية باستقبال الحدوس وتأليفها، وذلك الوعي هو الفكر الخالص الواعي لذاته، بوصفه شرطاً ضرورياً لوجود موضوع مدرك، لإضفاء الوحدة

1 - عمانونيل كانط، نقد العقل المحض، مصدر سابق، ص 108

2 - كانط، نقد العقل المحض، ص 99

3 - حامد خليل، مشكلات فلسفية، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، 1984، ص 284

4 - عمانونيل كانط، نقد العقل المحض، مصدر سابق، ص 99

5 - المصدر السابق، ص 102

6 - عمانونيل كانط، نقد العقل المحض، مصدر سابق، ص 89

7 - جيل دولوز، فلسفة كانط النقدية، مرجع سابق، ص 29

8 - عمانونيل كانط، نقد ملكة الحكم، ترجمة غانم هنا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص 76

على متنوع الحدس المعطى والذي يخضع ضرورة لمقولات الفهم بوصفها شروطاً قبلية لإمكانية معرفة الأشياء . وهنا تبدو المشكلة التي بدأ بها كانط " الاستنباط الترانسندنتالي " وهي تفسير كيفية انطباق المقولات القبلية / وهي مقولات عامة كلية / على الحدوس الحسية التجريبية، على الرغم من أنهما غير متجانسين، وتفسير لماذا يجب على الأشياء (الظاهرات) أن تتوافق مع مقولات الفهم دون أن تشتق منها " إننا نتساءل كيف يمكن أن نفهم أن على الطبيعة أن تنتظم وفقها، أي (المقولات)، أعني كيف يمكنها أن تعين قبلياً ربط متنوع الطبيعة دون أن تستمد منه " (1) إن كانط يتساءل إذن عن كيفية تفسير انطباق المقولات على الطبيعة الخاضعة لها ولا يتساءل عن كيفية خضوع الظواهر للمقولات. وهنا يفصح كانط عن دور فعال لملكة المخيلة إلى جانب ملكة الحساسية وملكة الفهم يسميها " المخيلة الترانسندنتالية " التي تلعب دوراً محورياً وسيطياً وإبداعياً في تنفيذ وظيفة الفهم .

رابعاً : النشاط التركيبي القبلي للمخيلة

تلعب المخيلة دور الوساطة الذي يربط الظاهرات بالإدراك الواعي، حيث يترك العقل المحض، عند كانط " كل شيء للفاهمة، التي هي بدءاً على صلة بموضوعات الحدس، أو بالأحرى بتأليفها في المخيلة " . (2) والظواهر لا تخضع لتأليف المخيلة فحسب ، وإنما بواسطة هذا التأليف تخضع لفعل الفهم الموحد في مقولاته كفعل أساسي في عملية المعرفة. والسؤال كيف يكون للمخيلة تأليفها هذا ؟. تعمل المخيلة * بحسب كانط على تركيب الانطباعات الحسية معاً لإنتاج تمثيلات عن الأشياء تقدمها لملكة الفهم، وهي التي تمد التصورات بالحدوس المناسبة لها، وبما أن كل حدوسنا حسية " فإن المخيلة تنتمي إلى الحساسية من جراء الشرط الذاتي الذي وحده يسمح لها بأن تعطي للأفاهيم الفاهمية حدساً يتناسب معها. ولكنها ومن حيث إن تأليفها هو عمل من أعمال التفانية يعين وليس يتعين وحسب كما هو في الحدس، ومن حيث أن بإمكانها أن تعين قبلياً الحدس لجهة صورية بموجب وحدة الأبصار... ويجب أن يدعى تأليفها للحدوس وفقاً للمقولات تأليف المخيلة الترانسندنتالي " . (3) وهو تأليف يختلف عن التأليف الذهني بواسطة الفهم الذي يتطلب مساعدة المخيلة . فللمخيلة عند كانط دوران: الدور الأول : دور متلق لأنه " يتعين " به الحدس الحسي وحسب. والدور الثاني: فعال تركيبي أو منتج لأنه " يعين " قبلياً صورة الحدس لجهة وحدة الإدراك الواعي وهذا الدور يسميه كانط بالتلقائي أو العفوي ويميزه عن دور المخيلة الاسترجاعي الذي تحكمه قوانين تجريبية " قوانين التداعي " والذي لا يسهم في تفسير إمكانية المعرفة القبلية.

لكن الدور الحاسم للمخيلة الترانسندنتالية ، وهو الأهم بنظر كانط ، هو الدور الإبداعي الذي تمارس به المخيلة وظيفية محددة وهي : توفير رسوم تخطيطية (scheme) للمقولات يمارس عن طريقها الفهم فعل الوحدة العامة عبر مفاهيمه. وهذا الفعل الإبداعي، هو فعل أصيل تقوم به المخيلة لأنها وحدها القادرة على توفير رسوم تخطيطية، تمارس من خلالها دور الوساطة بين الحساسية والفهم .

1 - عمانويل كانط ، نقد العقل المحض ، مصدر سابق، ص 112

2 - عمانويل كانط ، المصدر السابق، ص 199

* - يرفض كانط عمل المخيلة التجريبية والذي جعل منه هيوم مصدراً لتوحيد مدركاتنا تبعاً لعملية التداعي. حيث تتبع المعرفة مبادئ ذاتية سيكولوجية هي مبادئ الطبيعة البشرية تتعلق بتصوراتنا الخاصة. في حين أن المسألة عند كانط هي بأن ما يظهر لنا من طبيعة الأشياء يجب أن يخضع ضرورة لمبادئ تضبط مسار تصوراتنا، هي من طبيعة صورية محضة وليست نفسية. راجع كتاب نقد العقل المحض " تحليلات المبادئ " الباب الأول في " شيامة الأفاهيم الفاهمية المحضة "

3 - عمانويل كانط ، نقد العقل المحض ، مصدر سابق، ص 107-108

ويُفرق كانط بين نشاط المخيلة التأليفي وبين الرسوم التخطيطية * . فنشاط المخيلة التأليفي يقوم على المكان والزمان وهو تبعاً لذلك " تعيين حيز ما وزمان ما، الذي يربط عبره التنوع بالموضوع عموماً وفقاً للمقولات" (1) . في حين أن الرسم الخيالي (التخطيطي) يشير عند كانط إلى " قاعدة تصدر عن الخيال القبلي وظيفتها إيجاد التجانس بين المقولة والحدس" (2) . تكون بمثابة الشرط الذي بموجبه يصور الفهم أحكاماً بواسطة مفاهيمه، والتي تعد " مبادئ " لكل معرفة تتعلق بتنوع المعطى المدرك. لذلك فوظيفة الرسم الأساسية تتلخص في كيفية انطباق المقولات على الظواهر الخاضعة لها .

هنا يبرز بوضوح دور الوساطة المنوط بتلك الرسوم التخطيطية : إذ لكي تنطبق مقولات الفهم على موضوعات الحدس الحسية، يجب أن يوجد شيء ما يدركه الفهم في الحدس كي يستطيع أن يطبق عليه المقولة القبليّة وهذا الشيء هو الرسوم أو (الشيم) ، ويبدو هذا واضحاً في قول كانط بأنه " يجب أن يكون ثمة شيء ثالث يجانس من جهة المقولة ومن أخرى الظواهر ، ويجعل تطبيق الأولى على الثانية ممكناً. وهذا التصور الوسيط يجب أن يكون محضاً (من دون أي أميري) ويكون مع ذلك ذهنياً من جهة، وحسياً من جهة أخرى ، ومثل هذا التصور يدعي الشيم الترندالي " (3) . وهو صورة ذهنية عن الموضوع تماثل شكله أو هيئته، توفرها المخيلة للمقولات حتى تجعلها قابلة للانطباق على الظواهر . وكون تلك الرسوم تماثل تشبيهه رمزية عن الأشياء، هذا يعني أن في الموضوع المادي شيئاً ما يشكل أساساً لهذه الصورة الذهنية إذ " على الأفهوم أن يتضمن ما يتصور في الموضوع المطلوب إدراجه " (4) . ففي الصورة المادية " للصحن " مثلاً شيء يجانس الدائرة باعتبارها صورة خالصة أو رسم تخطيطي هو الاستدارة ؛ ولأن بعض الأشياء تقدم لنا أمثلة على الاستدارة يستطيع الفهم التعامل مع الأشياء حسب التصور الهندسي للدائرة .

ويميز كانط بين الرسم التخطيطي الذي هو تصور ذهني خالص، وبين الخيال المادي للشيء : ففي تفكيرنا بالعدد 5/ فمن السهل علينا تخيل نقاط خمسة، لكن هذا التمثيل الذهني للنقاط الخمسة ليس هو الصورة التخيلية الخالصة ؛ ذلك لأننا في التفكير في عدد مثل الألف يكون من الصعب تخيل ألف نقطة في أذهاننا، وعلى الرغم من ذلك يكون لدينا تخيلاً عن العدد / ألف / بدون صورة مادية له . هذا التخيل الذهني هو ما يسميه كانط بالرسم التخطيطي والذي هو " تصور طريقة المخيلة العامة في منحها هذا الأفهوم خيلاً " (5) . ويميزه عن صورة الشيء المادية أو " الخيل " المادي، ذلك أن الرسوم التخطيطية هي التي تؤسس لعمل المقولات وليس " أخيلة الموضوعات" . معنى ذلك أن الأعداد وحتى الأشكال الهندسية ينظر إليها كانط على أنها رسوم تخطيطية، أي صور ذهنية خالصة إلا أنها في الوقت نفسه حسية / خاصة بموضوعات مادية / تشير إلى حدس خالص بالكم أو بالمكان، وهذا العدد والشكل الهندسي يشكلان المرتبة الوسيطة بين الفهم والحس، تنتجها المخيلة في الذهن .

* - أحياناً يتم ترجمة مصطلح (scheme) في الأدبيات العربية بمفردات متعددة : رسوم تخطيطية، رسوم خيالية، أسكيمة، ويترجمها موسى وهبة معرب كتاب كانط " نقد العقل المحض " بالشيامة أو الشيم .

1 - جيل دولوز، فلسفة كانط النقدية ، مرجع سابق، ص 31 .

2 - محمود زيدان، كانط وفلسفته النظرية، دار المعارف، مصر، ط 1، 1967، ص 162 .

3 - عمانويل كانط، نقد العقل المحض ، ص 118 .

4 - عمانويل كانط، نقد العقل المحض ، مصدر سابق 117

5 - كانط ، المصدر السابق ، ص 119

ولكن لما كان كل "نتاج ترسدالي للمخيلة يتعلق بتعين الحس الباطن بعامة، وفق شروط صورته (الزمان)" (1). فإن عمل المخيلة يتخذ من صورة الزمان سبيلاً لإبداع رسومه وتصويراته الخاصة التي يصفها كانط بأنها "ليست سوى تعيينات زمانية قبلية بموجب قواعد" (2).

خامساً: الزمان والرسوم الخيالية (الاسكيمات) يحصر كانط (الرسوم التخطيطية) بتلك العمليات التي تضيء الصور على المفاهيم بمساعدة الزمان الذي يصفه بأنه "الشرط الصوري لمتنوع الحس الباطن، وبالتالي لاقتران التصورات" (3). لأن تلك الصور والرسوم إنما هي أشكال زمانية، تكون بمثابة الوسيلة الملائمة لتطبيقها على عيانات الحساسة، تساعد في تركيب أحكام قبلية يتخطى فيها الفكر النظري الحسية المباشرة. إن الشيء المشترك والوحيد لكل موضوع تجريبية، عند كانط، هو وجوده في الزمان. لذلك تكشف رسوم المخيلة ما يعنيه المفهوم، حين يطبق على العالم الظاهري فقط بوضعه تحت شكل الزمان. لذلك نجد "أن الصورة التخطيطية لأية مقولة لا تحتوي إلا على تصميم أو تصور للزمن وتجعله ممكناً" (4).

ولما كان الزمان عند كانط، هو الشرط الصوري للحس الباطن، وكان عمل المخيلة باطنياً. فإن المخيلة تتخذ صورة الزمان كوسيط بين الحدس الحسي ومقولات الفهم: فالزمان مجانس للحدس من جهة أنه يتضمن كل تمثلاتنا الحسية، وهو كلي من حيث أنه قاعدة كلية أولية تلتزم جميع الظواهر. إذن لا بد من حدس الزمان لكي تتمكن المخيلة من أن ترسم أولاً صورها الخاصة التي تستطيع الظواهر أن تندرج فيها، والتي تدل على انطباق مقولة بعينها تنتظم هذه الظواهر تحتها وهذه الإطارات يسميها كانط الرسوم (الاسكيمات) (5). فمقولة الواقع مثلاً تطابق (شكل شكل الوجود في الزمان) ولمقولة الجوهر صورتها التخطيطية المتمثلة في (الدوام في الزمان)، والصورة التخطيطية للضرورة (وجود الموضوع في كل زمان) أما رسم الكيف فهو (الوجود أو مضمون الزمان) وتصور العلية هو (التعاقب المنتظم في الزمان) (6). فإضفاء صورة الزمان على المفهوم، بهذا النحو الذي يهيئه للانطباق على العالم الظاهري، هو ما جعل (جيل دولوز) يصف تلك الرسوم بأنها "تعيين مكاني - زمني يتطابق هو ذاته مع المقولة في كل زمان ومكان: لا يتكون من صورة، بل من علاقات مكانية- زمانية تجسد علاقات مفهومية بالضبط أو تحققها" (7). وهي من عمل المخيلة التي تبعد أشكالاً زمنية للمقولات المختلفة، والقادرة على تعيين الزمان من خلال قوة الحساسة الباطنية بشكل مباشر. وهذا بالفعل ما دفع (بول ريكور) للقول بأن كانط "بمذهبه في التخطيطية، هو أول مفكر يربط بين إشكالية الزمان وإشكالية المخيلة" (8). ولكن إذا كان عمل المخيلة عبر رسومها التخطيطية، والتي تشكل "الجذر المشترك" الذي يتوسط عمل الحساسة وعمل الفهم هو "فن دفين في أعماق النفس الإنسانية... من الصعب أبداً أن ننتزع سر أدائه من الطبيعة لعرضه بشكل واضح للعيان" (9). فكذا أمر الزمان الذي يبدو للبعض أكثر إلغازاً عند كانط من الخيال المتعالي (الترنسدنتالي)، فهو عصي على الفهم

1 - كانط، نقد العقل المحض، ص، 119

2 - كانط، نقد العقل المحض، المصدر السابق، ص 121.

3 - كانط، نقد العقل المحض، المصدر السابق، ص 118.

4 - كيفن فانهوزر، أسلاف فلسفة ريكور في الزمان والسرد، مرجع سابق، ص 63

5 - زكريا إبراهيم، كانط أو الفلسفة النقدية، مكتبة مصر، القاهرة، 1972، ص 98-99

6 - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت - لبنان، ص 229.

7 - جيل دولوز، فلسفة كانط النقدية، مرجع سابق، ص 63-64

8 - كيفن فانهوزر، أسلاف فلسفة ريكور في الزمان والسرد، مرجع سابق، ص 63-64

9 - عمانويل كانط، نقد العقل المحض، مصدر سابق، ص 119

و " لا يمكن أن يدرك بحد ذاته " (1). وإذا كان كانط لا يجد سبيلاً إلى معرفة آلية الاتفاق، الذي تتوسطه المخيلة بين بين ملكتي الحساسية والفهم الفعالين، فهو من الالتباس والغموض الخفي بحيث لا تدركه النفس البشرية، إذن نحن أمام معضلة حاول كانط تجاوزها، برفضه لفكرة الانسجام في عمل الطبيعة البشرية عند هيوم، وفكرة الانسجام المسبق عند ليننتز، والتأكيد على فكرة الاتفاق المسبق في عمل ملكات الإنسان، وفكرة خضوع ضروري من جانب الموضوع لمبادئ عامة خاصة بالذات العارفة، وكل ما فعله بحسب دولوز " تغيير وجهة المشكلة دون حلها " (2).

الاستنتاجات والتوصيات :

في الختام يمكننا القول إن لملكة المخيلة دوراً حاسماً في بناء وتشكيل المعرفة الإنسانية، حيث تتوسط " التضاد" القائم بين حدوس الحساسية المنتظمة تحت صورتها الزمان والمكان ذات الطبيعة الحسية، ومفاهيم العقل كشروط قبلية لإدراك الموضوعات المستقلة عن التجربة، يؤكد كانط على العلاقة العميقة بين محددات المعرفة الإنسانية (حساسية - مخيلة - فهم) التي تظاير العالم الخارجي وليس " الأشياء في ذاتها" فالتصورات التي تستتبع الوعي على علاقة ضرورية بالموضوعات وذلك عبر القدرة على التأليف لمتنوع الحدس بالمخيلة تبعاً لمفاهيم عامة، تصبح بموجبها الذات المشرّعة الحقيقي لقوانين الطبيعة- للمخيلة عند كانط وظيفتان أساسيتان : مخيلة استرجاعية وظيفتها استرجاع صور الأشياء الغائبة دون حضورها في الحدس ولها دور ثانوي . ومخيلة إبداعية تنتج رسوماً تخطيطية تتصور المقولات على نحو حسي، بإبداع نماذج رمزية أولية تسهل عميلة انطباق تلك المقولات على عيانات الحدس، تسمح بموجبه بارتقاء الفهم عبر مقولاته في إصدار أحكام تركيبية أولية تشكل محتوى معارفنا.

يفترض عمل المخيلة - بحسب كانط - صورة الحس الباطن (الزمان) كقاعدة أولية تلائم جميع الظواهر، فرسوم المخيلة التخطيطية ما هي إلا " تعيينات زمانية " قبلية للمقولات المختلفة، التي سوف تنتظم الموضوعات تحتها، مؤكداً كانط بأن الزمان الذي يرافق جميع حدوسنا يصبح شرط إدراكنا للموضوعات عبر مفاهيم التسلسل والتتالي والتآني، مثلما هو شرط وجود هذه الموضوعات المدركة .

¹ - كانط، نقد العقل المحض، المصدر السابق، ص 137

² - جيل دولوز، فلسفة كانط النقدية، مرجع سابق، ص 38

المصادر والمراجع البحث

- 1 جورج زيناتي، الفلسفة في مسارها، الأحوال والأزمات للطباعة والنشر، ط1، 2002 .
- 2 جيل دولوز، فلسفة كانط النقدية، تعريب أسامة الحاج ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط 1، بيروت 1997.
- 3 حامد خليل، مشكلات فلسفية، مطبعة جامعة دمشق، دمشق، 1984 .
- 4 زكريا إبراهيم ، كانط أو الفلسفة النقدية ، مكتبة مصر، القاهرة، 1972.
- 5 عبد اللطيف الصديقي، الزمان أبعاده وبنائه، المؤسسة الجامعية للدراسات ، بيروت، ط1، 1995.
- 6 عمانوئيل كانط، نقد العقل المحض، ترجمة موسى وهبه، مركز الإنماء القومي، بيروت، ب- ت .
- 7 عمانوئيل كانط، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة، ترجمة نازلي إسماعيل حسن، مراجعة عبد الرحمن بدوي، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967.
- 8 عمانوئيل كانط، نقد ملكة الحكم، ترجمة غانم هنا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005
- 9 الوجود والزمان والسرد فلسفة بول ريكور، ترجمة سعيد الغانمي، تحرير ديفيد وورد، المركز الثقافي العربي، ط1، 1999.
- 10 -محمود زيدان، كانط وفلسفته النظرية ، دار المعارف، مصر، ط1، 1967.
- 11 -يحيى هويدي، دراسات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1990
- 12 -يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، ب- ت .